مَثَلُ المُؤمِنِ
كَالخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نتناولُ حديثاً شريفاً يُشبِّهُ النبي ﷺ حالَ المؤمنِ وحالَ المنافقِ في تفاعلهما وتأثرِ كلٍّ منهما بالمحنةِ والفتنة، فالمؤمنُ أشبهُ بالنبتةِ الغضةِ اللينةِ التي تميلُ مع الرياحِ لكنها لا تنقلع؛ بل تزدادُ مع حركاتِ الرياحِ تشبثاً بالأرضِ وارتفاعاً في السماء

اللهُ تعالى يبتلي عبدهُ المؤمن بالمصائبِ والنكباتِ وأنواعٍ من البلاء؛ حتى يُكفِّرَ من سيئاتهِ وخطاياه، وعلى المؤمنِ أن يصبرَ على ما يُصيبهُ من البلاء، ويعلمَ أنَّ العاقبةَ حميدةٌ بإذنِ اللهِ لمن صبرَ واحتسب، أما المنافقُ فهو أشبهُ بالشجرةِ الصماءِ التي لا تتحركُ مع الرياح، بل تبقى على حالها حتى تأتيها ريحٌ تقتلعها من جذورها، وأنَّ الكافرَ لا يُصيبهُ البلاء، حتى يُهلكهُ اللهُ ويأخذهُ مرةً واحدة

عناصر الموضوع

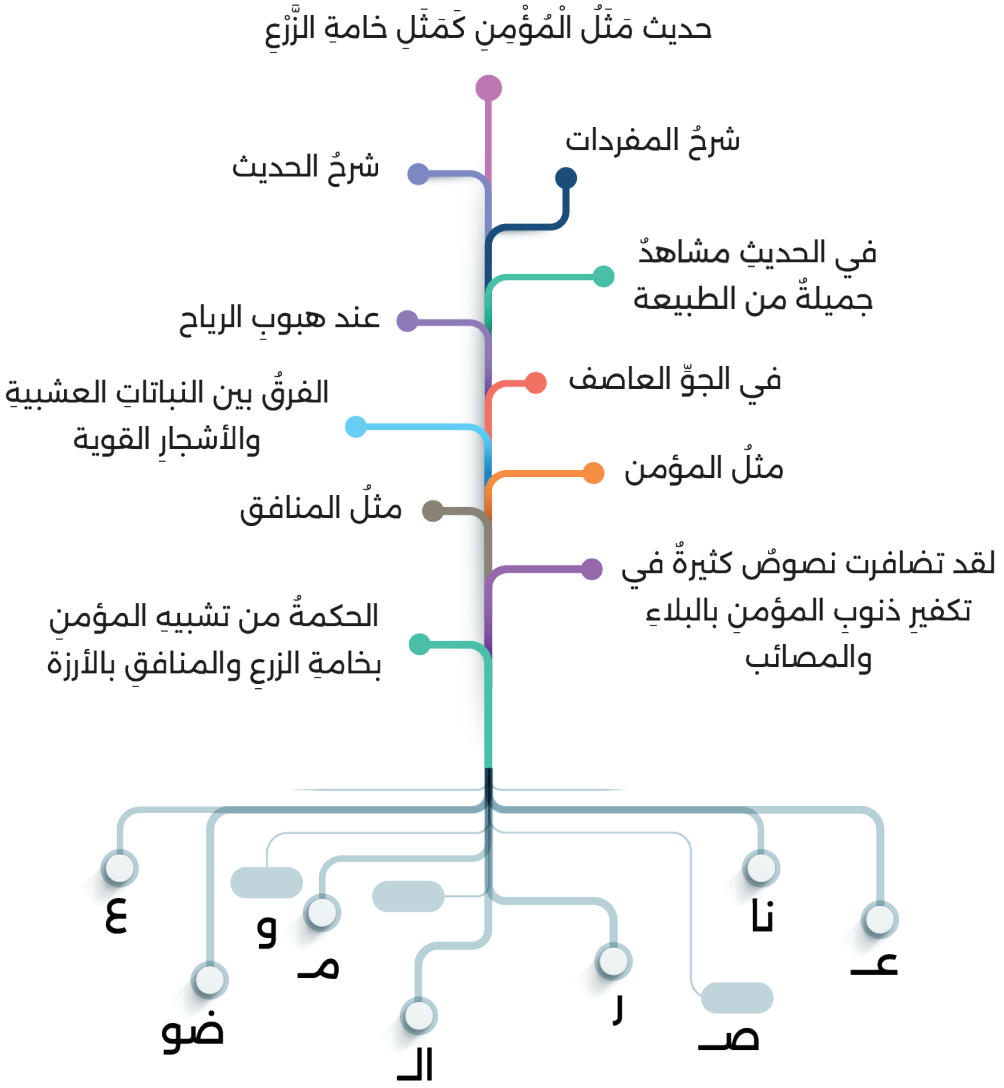

حديث مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خامة الزَّرْعِ

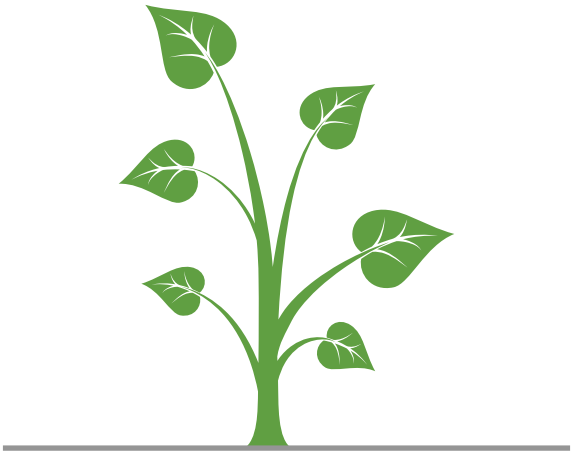

المَصَائِبُ والمِحَنُ والتعبُ في الحَيَاةِ الدُّنيَا أَمْرٌ لا بُدَّ مِنهُ، فنحنُ في هذهِ الحياةِ الدنيا تعترينا الآلامُ والأكدارُ والمصائبُ والبلايا المتنوعة، فيصيبُ النفسَ ما يُصيبها من العللِ والأدواءِ والهمومِ والغمومِ والأحزانِ التي لربما تكسرها

وكما ترونَ ما من أحدٍ في هذهِ الحياةُ إلا ويُعاني، فمُقلٌّ ومكثرٌ، فمنَ الناسِ من يُبتلى ببدنهِ، ومنهم من يُبتلى بمالهِ، ومنهم من يُبتلى بحبيبٍ وعزيزٍ وغالٍ عنده.

وهذه امرأةٌ محزونةٌ؛ لأنها لا تُنجب، وتلكَ قلقةٌ مشغولةٌ؛ لأنَّ الصغارَ قد أزعجوها، ولربما بكت، وذاكَ شقيٌ بامرأةٍ لم يُوفق معها، وتلكَ قد ابتليت بزوجٍ أشقاها، وأتعسها

وهكذا يموتُ الإنسانُ فيبكي أهلهُ عليهِ ويحزنون، أو يذهبونَ من بينِ يديهِ الواحدُ تلوَ الآخر، ويتجرعُ أحزانهم حيناً بعدَ حين

وفي المسجدِ كل يومٍ يُصلُّون على الجنائز، وهذهِ هي الحياة.

قد كانوا كثيري الأشغال، وواجهتهم عقباتُ الحياةِ بألوانها، وكُلُّ ذلكَ يصبُّ في النفسِ همّاً مما يتخوفهُ الإنسانُ في مستقبلِ أيامه، وهو ما قد يُعبِّرونَ عنهُ بالقلق

ولربما احترَّت نفسه، وأصابهُ الحزنُ بسبب أمرٍ فاتَ وانقضى، فهو يعيشُ في غمٍّ وانكسارِ نفسٍ وضيقٍ وحزن

وهذهِ الأحزانُ إذا تكاثرت وتتابعت على القلبِ فإنها تُضعفهُ وتُفسدهُ، ولهذا فإنها لا تكونُ محمودةً بحالٍ من الأحوال إلا إذا كانَ ذلكَ إشفاقاً من الدارِ الآخرة، أما الحزنُ على أمورٍ قد انقضت وانتهت فإنَّ ذلكَ يُضرُّهُ ولا ينفعه، ويصيرُ قلبُ هذا الإنسانِ مُعطلاً إذا كانَ محزوناً وتتابعت عليهِ الأحزان، لا ينتفعُ بهِ في شيءٍ من عملِ الدنيا، ولا أمرِ الآخرة، فيتفرقُ عليهِ قلبه، وتنثني عزائمه، ويكونُ هذا الإنسانُ لا شُغلَ لهُ إلا أن يذرفَ الدموع، وينعصرَ قلبهُ على ما حلَّ بهِ ونزل

ولقد ضَرَبَ لَنَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ في الحديثِ النبويّ الشريف مَثَلاً مُعَبِّراً للمُؤمِنِ عن حالهِ في هذهِ الحَيَاةِ الدُّنيَا

وهي مِن الأساليبِ التي امتازَ بها النبيُ ﷺ، التَّشبيهُ وضَربُ الأمثالِ؛ لِتَقريبِ المفاهيمِ للنَّاسِ عندَ وَعْظِهم وتَعليمِهم

ولِما في الحديثِ تسليةٌ للمؤمنِ عمَّا يُصيبهُ من محنٍ وابتلاءاتٍ في هذهِ الحياة، فينبغي على العبدِ أن يستسلمَ لقضاءِ اللهِ وقدره، وأن يعلمَ أنَّ كُلَّ ما يُصيبهُ في الدنيا ففيهِ الخيرُ له؛ فإن أصابتهُ سرَّاءَ فشكرَ كانَ خيراً له، وإن أصابتهُ ضرَّاءَ فصبرَ كانَ خيراً له

مَثَلُ المُؤْمِنِ كَالخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً، وتَعْدِّلُهَا مَرَّةً، ومَثَلُ المُنَافِقِ كَالأرْزَةِ، لا تَزَالُ حتَّى يَكونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً واحِدَةً[1].

وفي روايةٍ أخرى للحديث:

مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ خامَةِ الزَّرْعِ يَفِيءُ ورَقُهُ مِن حَيْثُ أَتَتْها الرِّيحُ تُكَفِّئُها، فإذا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وكَذلكَ المُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بالبَلاءِ، ومَثَلُ الكافِرِ كَمَثَلِ الأرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حتَّى يَقْصِمَها اللَّهُ إذا شاءَ[2].

(١) الراوي: كعب بن مالك | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري.الصفحة أو الرقم:٥٦٤٣ | خلاصة حكم المحدث [صحيح]. التخريج: أخرجهُ البخاري (٥٦٤٣)، ومسلم (٢٨١٠).

(٢)الراوي: أبو هريرة | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٧٤٦٦ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح] | التخريج: أخرجه البخاري (٧٤٦٦)، ومسلم (٢٨٠٩) بنحوه.

شرح المفردات

(والخامةُ من الزرع): أولُ ما ينبتُ من الزرعِ على ساقٍ واحدة، وقيل: الضعيف، والخامةُ تكونُ في بدايتها رقيقةً ضعيفةً لشدةِ لينها

الرسولُ صلى الله عليهِ وسلم يُصورُ حالَ المؤمنِ كمثلِ الخامةِ من الزرع، والخامةُ تعني فروعَ صغيرة ممتدة كالقمحِ أو الشعيرِ فهذا من أينَ تأتيهِ الريحُ تجدها شديدة

(تفيئها الريح) (تُمِيلهَا وَتُفِيئهَا)، وَمَعْنَاهُ: تُقَلِّبهَا الرِّيحُ يَمِيناً وَشِمَالاً: أي تُميلها وتجعلها منثنيةً ومنكفئةً على الأرض، وتارةً تقيمها، والمرادُ أنَّ الخامةَ من الزرعِ تستمدُّ قوتها وقدرتها على الصمودِ في مواجهةِ الريحِ من ضعفها ولينها.

(الأَرْزَ) يُشبِهُ شَجرَ الصَّنَوْبَرِ؛ شجرٌ عظيمٌ صلبٌ ثابتٌ دائم الخضرةِ يعلو كثيراً، تصنعُ منهُ السفن، وأشهرُ أنواعهِ أرزُ لبنان

فهي لا تنثني مهما تأتيها الريحُ ولا تُميلها لا يميناً ولا يساراً، ولا تقعُ إلا دفعةً واحدة، ويكونُ انْجِعَافُهَا -أي: انقِلاعُها- مرَّةً واحدةً.

شرحُ الحديث

ويَشتمِلُ هذا الحديثُ على تَشبيهٍ رائعٍ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقدْ أُوتِيَ جَوامعَ الكَلِمِ.

فشبَّهَ المؤمنَ بالخَامَةِ مِن الزَّرعِ، وهي النَّبْتةُ الغَضَّةُ الطَّريَّةُ، تُميلُها الرِّيحُ مرَّةً وتَعدِلُها أُخرى، وشبَّهَ المنافقَ بالأَرْزَةِ، وهو شَجرٌ مَعروفٌ يُقالُ له: الأَرْزَنُ، يُشبِهُ شَجرَ الصَّنَوْبَرِ، وقيل: هو شجر الصَّنَوْبَرِ، كما قيل: هو ذَكَرُ الصَّنَوْبَرِ، وهو الشَّجَرُ الذي يُعمَّرُ طَويلًا، وهي صُلبةٌ صَمَّاءُ ثابِتةٌ، ويكون انْجِعَافُهَا -أي: انقِلاعُها- مرَّةً واحدةً.

في الحديثِ مشاهدٌ جميلةٌ من الطبيعة

عندَ هبوبِ الريح

وهذا الحديثُ فيهِ مشاهدٌ عظيمةٌ من عالمِ النباتِ والبيئةِ المُحيطةِ به، فعندما تهبُّ الريحُ نجدُ النباتاتِ الحولية ضعيفةَ الساق، والمرنة غير المتغلِّظة في السُمكِ وغير طويلةِ الساقِ في الحقولِ الشاسعةِ قد تمايلت جميعها كبساطٍ أخضر جميل مع اتجاهِ الريحِ الشديدةِ الباردةِ أحياناً والحارةِ أحياناً أخرى

ثم تهدأ الريحُ فجأة، فتستقيمُ النباتاتُ جميعها دفعةً واحدةً وتعتدل، ثمَّ تُغيِّرُ الريحُ اتجاهها فتميلُ النباتاتُ معها في نفسِ الاتجاه، وهكذا تتلاعبُ سيقانُ وأوراقُ تلك النباتاتِ الخضراءِ الضعيفةِ مع الريح، تنحني وتميلُ، ثم ترتفعُ وتستقيم إلى أن تهدأ الريحُ فتعود سيرتها الأولى، وتستمرُّ في نموها وازدهارها وإثمارها.

في الجوِّ العاصف

إذا تتبعنا نبتةً واحدةً في هذا الجوِّ العاصفِ نجدُ ساقَ النبتةِ تتلاعبُ بأوراقها في سرعةٍ عجيبةٍ مع الرياحِ شدةً وضعفاً واتجاهاً

وفي المقابلِ وفي نفسِ المكانِ وبالريحِ عينها نجدُ الشجرةَ القويةَ المُعمِّرةَ سنواتٍ عدَّة أتتها الرياحُ العاصفةُ القوية، فقاومتها بهامتها الكثيفةِ وساقها الطويلة، فضغطت عليها الريحُ بشدةٍ ثم اقتلعتها من الأرضِ وألقت بها مُمددةً طويلةً مهزومةً مقلوعةً من جذورها، مُحطمةً سيقانُها وأوراقها ومُبعثرةً في كلِّ مكان

ثم تهدأ الريحُ وتدبُّ الحياةُ في المكان، ولكنَّ هذهِ الشجرة لا تقدرُ على العودةِ سيرتها الأولى، ولا يجدُ الناسُ بُدّاً من إزالتها من المكانِ وتقطيعها وتجفيفها واستخدامِ ساقها في الصناعاتِ الخشبيةِ وفي إيقادِ النيران

الفرقُ بين النباتاتِ العشبيةِ والأشجارِ القوية

العشبيةُ تظلُّ سيقانها ضعيفةً مرنةً غير مغلظة الجُدُر، وإن وُجدَ التغليظُ فهو قليلٌ لا يحولُ دونَ مرونةِ تلكَ السيقانِ، وبعضُ النباتاتِ العشبيةِ طويلة الساقِ كالقصب، ولكنها ذات عقدٍ على الساقِ المُجوَّفة، بها أماكنٌ مرنةٌ تسمحُ للساقِ بمقاومةِ الريحِ من دونِ تكسرٍ ومقاومة كبيرة

أما الأشجارُ القويةُ فتستمرُّ في النموِّ وتتغلَّظُ سيقانها بخلايا ذاتِ جُدرٍ خشبيةٍ قوية، وفي كلِّ عامٍ ومعَ تقدِّمِ العمرِ يزدادُ سمكُ الساقِ والجذرِ ويطولُ كُلٌّ منهما ويتغلَّظ، وتتحولُ الساقُ إلى الحالةِ المتخشبةِ قليلةِ المرونة، وهذا ما نُلاحظهُ عندَ دراسةِ المقاطعِ العرضيةِ في السيقانِ والجذورِ المُسنَّة، حيثُ الطبقاتُ المتتاليةُ التي تتسعُ بحسبِ العمرِ والنموِّ والموسمِ وتوافرِ المياهِ واعتدالِ الحرارةِ ومناسبتها للنمو، وهي كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾[1]، أي صارَ من الدقةِ إلى الغلظةِ، (أي صارَ غليظاً)

(١) الفتح ٢٩

ولهذا عندما تهبُّ الرياحُ عاصفةً نجدُ ساقَ النبتةِ الصغيرةِ والنباتاتِ العشبيةِ غير المغلظةِ تغليظاً قوياً مرونتها وقدرتها على مجابهةِ الرياحِ أكبر فلا تكسرها ولا تقلعها، أما سيقانُ الأشجارِ المغلظةِ غير المرنةِ فإنها إما أن تنكسرَ وإما أن تخلعَ من أصولها

يا لهُ من مشهدٍ تصويريٍ رائعٍ لخامةِ الزرعِ شديدةِ الضعفِ والرقةِ البيّنةِ الضعف

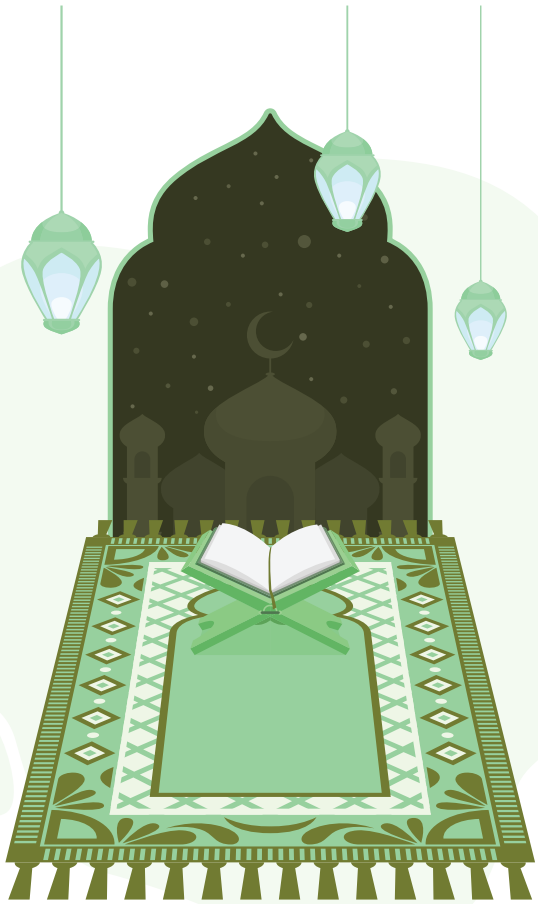

إلا أنَّ اللهَ ﷻ جعلَ للزرعِ من هذا الضعفِ قُوة، لأنهُ يُوظفُ لخدمة في البقاء، ولا يكونُ علامةَ ضعفٍ أو عجز، فمثلاً الريحُ تقتلعُ كُلَّ قائمٍ في طريقها، فمن انحنى سلمَ منها وأمنَ على بقائه، ومن لم يقدر على مُقاومتها اقتلعتهُ من جُذوره.

ولهذا شبَّهَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم المؤمنَ بالخامةِ (النباتيةِ) الرقيقة، لم يُؤثِّر في إيمانهِ ضرَّاءَ أو نازلة، مُمتثلاً للهِ ﷻ واضعاً نصبَ عينيهِ قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ (١)

أي: ووجْهُ التَّشبيهِ أنَّ المؤمنَ وقتَ البلاءِ يميلُ ويتعبُ نتيجةَ ضعفِ الإنسان، إلا أنهُ يصمدُ لقوةِ إيمانهِ واستعانتهِ بالله، أي أنهُ إذا جاءهُ أمْرُ اللهِ انْصاعَ لهُ ورضِيَ به؛ فإنْ جاءهُ خيْرٌ فرِحَ بهِ وشَكَر، وإنْ وقَعَ بهِ مَكروهٌ صبَرَ ورَجا فيهِ الأجرَ، فإذا اندفَعَ عنهُ اعتدَلَ شاكرًا، والنَّاسُ في ذلكَ على أقسامٍ؛ منهم مَن يَنظُرُ إلى أجْرِ البلاءِ فيَهُونُ عليهِ البلاءُ، ومنهم مَن يرى أنَّ هذا مِن تَصرُّفِ المالكِ في مِلكِه، فيُسلِّمُ ولا يَعترِضُ.

ولهذا نجدُ المؤمنَ الحق إذا مرت بهِ المحنةُ غير ساخطٍ ولا مُعترِضٍ، مُفوضاً أمرهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، سائلاً اللهَ -سُبحانهُ وتعالى- العونَ والمدد، مثلما بيَّنَ النبيُ ﷺ: تفيؤهُ الرياحُ هكذا وهكذا، المؤمنُ يُصيبهُ تارةً كذا، تارةً موتُ ولد، تارةً زوجة، تارةً أمراضٌ عارضة، يعني يُصابُ بأشياءَ متنوعة

ما معنى تشبيهِ المؤمنِ بخامةِ الزرعِ في الحديث؟ بن باز رحمه الله الموقع الرسمي للشيخِ بن باز

الحديثُ فيه بيانُ أنَّ سُنَّةَ الابتلاءِ ماضيةٌ في العِبادِ، وأنَّ الابتلاءَ للمُؤمِنِ إنما هو رَحمةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، ولُطفٌ به

(١) التوبة: ٥١

لكنَّ المنافقَ على خلافِ ذلك، فإن أتتهُ الابتلاءاتُ لا ينحي ولا ينكسرُ للهِ، فهو مثلَ شجرِ الصنوبرِ تصمدُ أمامَ الريحِ غيرَ مُتأثرة، فالمنافقُ والكافرُ يعتقدُ أنَّ المحنَ من سوءِ الحظِّ، وأنها ظُلمٌ لهُ وليسَ ابتلاءً من اللهِ عزَّ وجلَّ

لذا فهو حينما يُبتلى في نفسهِ أو في مالهِ أو أهلهِ نجدهُ يسخطُ ويجأرُ بالشكوى كأنهُ يعترضُ على ربِّ العبادِ، ويقولُ: لماذا اخترتني من دونِ عبادك بكذا وكذا؟ ولماذا أنا الوحيدُ الذي يحصلُ لهُ هذا المكروهُ من بينِ كُلِّ الناس؟

فهكذا حالهُ عندَ الامتحانِ والابتلاء، ضعيفَ القلب، وينكشفُ أمرهُ فنجدهُ يخرجُ من المحنِ محروماً من نعمتي الإيمانِ والتسليمِ لله، والحديثُ فيه فضلُ الإيمانِ باللهِ -وبقضائهِ وقدرهِ- وفيهِ ذمُّ النفاقِ والمُنافقين، فالبعضُ يغترُّ بحالِ الكافرِ والمنافقِ الغنيِّ وصاحبِ الوجاهةِ والسُّلطةِ والقوةِ.

وفي الحديثِ وَجْهُ تَشبيهِ المنافقِ والكافرِ بالأرْزةِ: أنَّ المنافقَ لا يَتفقَّدُهُ اللهُ باختبارِه، بل يَجعَلُ لهُ التَّيسيرَ في الدُّنيا؛ لِيَتعسَّرَ عليهِ الحالُ في المعادِ، حتَّى إذا أرادَ اللهُ إهْلاكَهُ قصَمَهُ، فيكونُ مَوتُهُ أشَدَّ عَذابًا عليهِ وأكثَرَ ألَمًا في خُروجِ نفْسِه

فالرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلم شبَّهَ الكافرَ بأنَّهُ منيعٌ وقوي، وجسمهُ صحيح، ومن الممكنِ ألا يرى في حياتهِ كلها أيَّ نوعٍ من أنواعِ البلاءِ والمرض، ثم يأتيهِ الموتُ دفعةً واحدة.

فالمنافقُ كالشجرةِ المُمتدةِ الفروعِ والسيقانِ والأوراقِ ولا يدري أنَّهُ ضعيفٌ معَ أولِ محنةٍ ينكشفُ ضعفهُ وقلَّة مناعتهِ

والبعضُ يستهينُ بالمؤمنِ لأنهُ كالنبتةِ الصغيرةِ فيظنهُ ضعيفاً ولكن عندَ الشدائدِ تجدهُ قوياً مُؤمناً صابراً مُحتسباً، كما اخْتَلَطَتْ جُذُورُ الزَّرْعِ في الأَرضِ وتَماسَكَتْ، فالرِّيحُ وإنْ أَمالَتْهُ يُمْنَةً ويُسْرَةً فَإنَّهَا لا تَطْرَحُهُ ولا تَكْسِرُهُ ولا تُسْقِطُهُ

وكذلكَ المُؤمِنُ الذي رَسَخَ الإيمَانُ في قَلبِهِ، فَإنَّ المَصَائِبَ وإنْ آلَمَتْهُ وأَحْزَنَتْهُ فَإنَّهَا لا تَنَالُ من إيمَانِهِ شَيئاً، بل على العَكْسِ من ذلكَ تَمَامَاً، فَإنَّهَا لا تَزِيدُهُ إلا إيمَانَاً باللهِ -تعالى-؛ لأنهُ يعلمُ طَبِيعَةَ الحَيَاةِ الدُّنيَا بأنَّها صَفْوٌ يَعْقُبُهُ كَدَرٌ، وكَدَرٌ يَعْقُبُهُ صَفَاءٌ، وفَرَحٌ يَعْقُبُهُ حُزْنٌ، وحُزْنٌ يَعْقُبُهُ فَرَحٌ، ولَذَّةٌ يَعْقُبُهَا أَلَمٌ، وأَلَمٌ يَعْقُبُهُ لَذَّةٌ.

وَلَيسَ للمُؤمِنِ الصَّادِقِ فِيهَا إلا الصَّبْرُ؛ فَهُوَ الدَّوَاءُ لأَدوَائِهَا، وكَانَ أَمْرُ المُؤمِنِ بَينَ النَّاسِ أَمْرَاً عَجِيبَاً، لأَنَّهُ إذا أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيرَاً لَهُ، وإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيرَاً لَهُ.

المُؤمِنُونَ جَمِيعَاً بِحَاجَةٍ إلى الصَّبْرِ والمُصَابَرَةِ، وهُنَاكَ أُمُورٌ تُعِينُ على الصَّبْرِ في المَصَائِبِ، أَهَمُّهَا عَدَمُ الجَزَعِ؛ فلَو عَلِمَ العَبدُ أنَّ المَقَادِيرَ بِيَدِ اللهِ ﷻ وأَنَّ كُلَّ مَا يَحْدُثُ قَد سَبَقَ في عِلْمِ اللهِ وتَقْدِيرِهِ، لَمَا اشْتَدَّ بِهِ الحُزْنُ، ولَمَا أَلَمَّ بِهِ الأَسَى إلى حَدِّ الجَزَعِ والقُنُوطِ

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾

التَسخُّط على أَقْدَارِ اللهِ لَن يُعِيدَ غَائِبَاً، فالصَّبْرُ والاحْتِسَابُ هوَ أَولَى لَنَا، يَقُولُ سَيِّدُنَا عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»[٢]

فالصَّبْرُ على المَصَائِبِ يَعْقُبُ الصَّابِرَ الرَّاحَةَ مِنهَا، ويُكْسِبُهُ الأجرَ والثواب

ينبغي أن نتذكرَ دائماً أنَّ اللهَ ﷻ قد ارتضى لنا هذهِ المصيبةَ وهذا البلاءَ الذي حلَّ بنا، وأنهُ اختارهُ لنا، واختارنا له

والعبوديةُ الحقةُ تقتضي أن نرضى بما رضيَ اللهُ ﷻ بهِ لنا، فلا يكونُ للعبدِ اعتراضٌ على اللهِ وعلى أقداره، وإنما يكونُ راضياً بما ارتضاهُ لهُ مولاه

(١) الحديد: ٢٢ - ٢٣

(٢) الدرُّ المنثور (١/ ١٦٣).

الحكمةُ من تشبيهِ المؤمنِ بخامةِ الزرعِ والمنافقِ بالأرزة

١. المؤمنُ دائمُ البلاءِ والآلام:

فكما أنَّ الخامةَ تتعرضُ للرياحِ على الدوام، فكذلكَ المُؤمنُ مع البلاء، لترفعَ درجتهُ وتُكفَّرَ سيئاته: قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[1]

وأما الكافرُ والمنافقُ فهو كالأرزة، قليلُ البلاءِ والآلام: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخَلَ أعرابيٌّ على رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: (أخَذَتكَ أمُّ مِلْدَمٍ قَطُّ؟) قال: وما أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قال: (حَرٌّ يكونُ بينَ الجِلْدِ واللحمِ) قال: ما وجَدتُ هذا قَطُّ، قال: (فهل أَخَذَكَ الصُّداعُ قَطُّ؟) قال: وما الصُّداعُ؟

(١) البقرة: ١٥٥

قال: (عُروقٌ تَضرِبُ على الإنسانِ في رأسِه) قال: ما وَجَدتُ هذا قَطُّ، قال: فلمَّا ولَّى قال: (مَنْ أَحَبَّ أنْ يَنظُرَ إلى رجُلٍ مِن أهلِ النَّارِ فلْيَنظُرْ إلى هذا)[1].

- فالمؤمن دائماً مُبتلىً يأتيهُ المرضُ والفقرُ والبلاء.

- أما الكافرُ فتجدهُ في راحةٍ من الأمرِ، كما قالَ تباركَ وتعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾[2] ، فيكونُ قصمهُ مرةً واحدةً فيذهب

٢. المؤمنُ يخضعُ لربهِ عندَ الشدائدِ والمِحن:

فكما أنَّ الخامةَ إذا جاءت الريحُ خضعت لها لتحفظَ حياتها، فالمؤمنُ يخضعُ ويذلُّ وينكسرُ لربهِ عندَ الشدائدِ ليحفظَ حياةَ قلبه: قال تعالى عن نبيه يونس -عليه السلام-:﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[3]

وأما الكافرُ والمنافقُ فهو غليظٌ مُستكبرٌ، لا يخضعُ لربهِ ولا ينكسرُ ولا يتأثر، كالأرزة: قال تعالى عن قومِ عادٍ وقد نزلَ بهم البلاءُ وعلاماتُ نزولِ العذاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾[4].

---

(١) الراوي: أبو هريرة | المحدث: شعيب الأرناؤوط | المصدر: تخريج المسند لشعيب الصفحة أو الرقم: ٨٣٩٥ | خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن التخريج: أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٤٩١)، وأحمد (٨٣٩٥) واللفظ له

(٢) الأعراف: ١٨٢

(٣) الأنبياء: ٨٧-٨٨

(٤) الأحقاف ٢٤ - ٢٥

ومثلـهُ مثـلُ الريـحِ العاصـفِ يسـلمُ منهـا الـزرعُ اللينـةُ ويتقصـفُ منهـا الشـجرُ العظـامُ لانتصابها لها، فـإنَّ المُنافـقَ لقوتـهِ وتعاظمـهِ يتقاوى على الأقـدارِ ويسـتعصي على الريـحِ كشـجرةِ الصنوبـرِ ولا يتمايـلُ معهـا فتتسـلطُ عليـهِ ريـحٌ عاصـفٌ لا يقـوى عليهـا فتقتلعـهُ مـن أصلـهِ بعروقـهِ فتُهلكـه

٣. المؤمنُ ضعيفٌ في ظاهرهِ، قويٌ في باطنه:

فكمـا أنَّ الخامـةَ تظهـرُ ضعيفـةً مـع الريـاح؛ إلا أنهـا لا تمـوت، وكذلـكَ المؤمـنُ يطمـعُ فيـهِ اللئـامُ لغربتـهِ بينَ النـاس، (المؤمـنُ ضعيـفُ الهيئـةِ قـويٌ القلب)، قـال النبيُّ صلى اللهُ عليـهِ وسلم: (بَـدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًـا وَسَيَعُودُ كمـا بَـدَأَ غَرِيبًـا، فَطُوبَـى لِلْغُرَبَـاءِ)[1].

المؤمـنُ ضعيـفٌ مثـلَ ثمـرةِ الـزرعِ، وهـو السـنبلُ يُسـتضعفُ ويطمـعُ فيـهِ كُلُّ أحـدٍ لقـربِ تناولـه، فيطمـعُ الآدميُّ فـي الأكلِ منـهُ وفـي قطعـهِ وسرقتـهِ، والبهائـمُ فـي رعيـهِ، والـطيرُ فـي الأكلِ منـه، وكذلـكَ المؤمـنُ يُسـتضعفُ فيُعاديـهِ عُمـومُ النـاسِ لأنَّ الإسلامَ بـدأ غريبـاً ويعـودُ غريبـاً كما بـدأ، فطُوبـى للغربـاء، فعمـومُ الخلـقِ يسـتضعفهُ ويسـتغربهُ ويؤذيـهُ لغربتـهِ بينهـم

وقـال تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾[2]

(١) الـراوي: عبـدالله بـن عمـر | المحـدث: مسـلم | المصـدر: صحيـح مسـلم الصفحـة أو الرقـم: ١٤٦ | خلاصـة حكـم المحـدث: [صحيح]التخريـج: مـن إفـراد مسـلم علـى البخـاري

(٢) آل عمران: ١٧٣

المؤمنُ ضعيفُ البدنِ قويُّ القلب

ولكنَّ المؤمنَ لهُ قوةُ القلبِ وقوةٌ في ثباتهِ على الإيمان، فالإيمانُ الذي في قلبهِ مثلُه كمثلِ شجرةٍ طيبةٍ، أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، فيعيشُ على الإيمانِ ويموتُ ويُبعثُ عليه.

وإنما الرياحُ ـ وهى بلايا الدنيا ـ تقلّبُ جسمَهُ يُمنةً ويُسرة، وأما قلبُهُ فلا تصلُ إليهِ الرياحُ لأنهُ محروسٌ بقوةِ الإيمان، فالتمثيلُ بالزرعِ لجسدهِ لتوالي البلاءِ عليه، والتمثيلُ بالنخلةِ لإيمانهِ وعملهِ وقوله

وأما الكافرُ والمنافقُ قويُّ الهيئة، فلا يجترئُ عليهِ عمومُ الناسِ لارتفاعهِ وغلظته، وإن كانت حقيقتهُ الضعف (ضعيفُ القلبِ قويُّ البدن)، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝﴾[1]

وقد وردَ في القرآنِ تشبيهُ المنافقين بالخُشُبِ المُسندةِ مع حسنِ منظرهم، فوصفهم بحُسنِ الأجسامِ وتمامها، وحسنِ المقالِ وفصاحتهِ حتى يُعجِبَ منظرُهم مَنْ يراهم، ويُسمَعُ قولُهم من سمعهُ سماعَ إصغاءٍ وإعجابٍ به، ومع هذا فبواطنهم خرابٌ فارغة، فلهذا مثّلهم بالخشبِ المُسندةِ التي لا رُوحَ لها ولا إحساس، وقُلوبهم مع هذا ضعيفةٌ في غايةِ الضعف: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ لأنهم لما أضمروا خلافَ ما أظهروا خافوا الاطلاعَ عليهِ فكلما سمعوا صيحةً ظنوا أنها عليهم، وهكذا كل مريب يُظهرُ خلافَ ما يضمرُ يخافُ من أدنى شيءٍ ويحسبهُ عليهِ، فقلوبهم في غايةِ الضعفِ والهلع

(١) المنافقون: ٤

إذاً الكافرُ والمنافقُ، قويّ الجسمِ ضعيف القلبِ، لا تُقلِّبهُ رياحُ الدنيا، وأما قلبهُ فإنهُ ضعيفٌ تتلاعبُ بهِ الأهواءُ المُضلّة، فتقلبُهُ يُمنةً ويُسرة، فكذلك كانَ مَثَلُ قلبهِ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوقِ الأرضِ ما لها من قرار

٤. المؤمنُ أليفٌ مع إخوانه:

- فكما أنَّ الخامةَ تكونُ مُجتمعةً مع النبتِ مِن حولها، كذلكَ المؤمنُ يألفُ ويتقوى بإخوانه

- ومن فوائدِ تمثيلِ المؤمنِ بالزرعِ أنَّ الزرعَ وإن كانَت قوتهُ ضعيفةً ضئيلةً فهو يتقوّى بما يخرجُ معهُ وحولَهُ ويَعتضدُ به، بخلافِ الشجرِ العظامِ فإنَّ بعضها لا يشدُّ بعضاً، وقد ضربَ اللهُ تعالى مثلَ نبيه صلى الله عليهِ وسلم وأصحابِه بالزرعِ لهذا المعنى، فقالَ تعالى:﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[1]

وإنَّ الزرعَ وإن كان ضعيفاً فإنهُ يتقوى بعضهُ ببعض، فهو يتقوى بما يخرجُ حوله، وكذلكَ المؤمنونَ بعضهم أولياءُ بعض، وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2]، فبينهم الموالاةُ والمحبةُ والنصرةُ، وقلوبهم على قلبِ رجلٍ واحد

وقد وصفَ اللهُ ﷻ النبيَّ ﷺ وأصحابهُ بالزرعِ الذي يتقوى بعضهُ ببعض، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[3]

---

(١) الفتح: ٢٩

(٢) التوبة ٧١

(٣) الفتح: ٢٩

أي: وأما مثلهم في الإنجيلِ، فإنهم موصوفونَ بوصفٍ آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾{أي: أخرجَ فراخه، فوازرتهُ فراخهُ في الشبابِ والاستواء[1].

﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ ذلكَ الزرعُ أي: قويَ وغلُظ ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ جمعُ ساق، ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ من كمالهِ واستوائهِ، وحُسنهِ واعتدالهِ، كذلك الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهم، هم كالزرعِ في نفعهم للخلقِ واحتياجِ الناسِ إليهم، فقوةُ إيمانهم وأعمالهم بمنزلةِ قوةِ عُروقِ الزرعِ وسوقه، وكون الصغيرِ والمتأخرِ إسلامه، قد لحقَ الكبيرَ السابقَ وآزرهُ وعاونهُ على ما هو عليه، من إقامةِ دينِ اللهِ والدعوةِ إليهِ، كالزرعِ الذي أخرجَ شطأهُ، فآزرهُ فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾حينَ يرونَ اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحينَ يتصادمونَ معهم في معاركِ النزال، ومعامعِ القتال[2].

المؤمنون بينهم ولايةٌ؛ وهي مودةٌ ومحبةٌ باطنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[3].

وأما الكافرُ والمنافقُ فإنهُ وإن كانَ في جماعةٍ مثله، فهو لا يألفُ كالأرزةِ وحدها؛ لأنهُ يُريدُ مصالحهُ وهو عديمُ الوفاء

(١) من «تفسير السعدي» كتاب تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٩٥).

(٢) من «تفسير السعدي» كتاب تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٩٥).

(٣) الحجرات ١٠

وقال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [1].

﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾؛ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفةَ في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفةُ في ضعفِ إيمانهم وعدمِ اجتماعِ كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين. {و} لكن ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾؛ أي: مُتباغضةٌ مُتفرقةٌ مُتشتتة

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذُكر ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ أي: لا عقلَ عندهم ولا لُب، فإنهم لو كان لهم عقولٌ لكانت كلمتهم مُجتمعةً، وقلوبهم مؤتلفةً، فبذلك يتناصرونَ ويتعاضدونَ ويتعاونونَ على مصالحهم ومنافعهم الدينيةِ والدنيوية[2].

المنافقونَ قلوبهم مُختلفة، وأهواؤهم غيرُ مؤتلفة، فهم بعضهم من بعضٍ في جنسِ الكفرِ والنفاق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾[3] ليسَ بينهم من المحبةِ والائتلاف

٥. المؤمنُ مُباركٌ في حياتهِ وبعدَ مماته:

- فكما أنَّ الخامةَ يُنتفعُ بها في حياتها بثمرها وحبها، وبعدَ مماتها بآثارها، كذلكَ المؤمن: أنَّ رجلًا قالَ: يا رسولَ اللَّهِ أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟ قالَ: (مَن طالَ عمرُهُ، وحَسنَ عملُهُ)، قالَ: فأيُّ النَّاسِ شرٌّ؟ قالَ: (مَن طالَ عمرُهُ وساءَ عملُهُ)[4].

---

(١) الحشر ١٤

(٢) من «تفسير السعدي»كتاب تيسير الكريم الرحمن) ص ٨٥١).

(٣) التوبة: ٦٧

(٤) الراوي: أبو بكرة نفيع بن الحارث | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترمذي. الصفحة أو الرقم: ٢٣٣٠ | خلاصة حكم المحدث: صحيح [لغيره]

- قال النبي ﷺ: (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له)[1].

- مثلُ المؤمنِ كمثلِ الزرعِ يُنتفعُ بهِ بعدَ حَصَادِه، وأصحابهُ يحصدونهُ ثم يبقى منهُ ما يلتقطهُ المساكين، وترعاهُ البهائم، وربما أخرجَ بعضهُ نباتاً مرةً أخرى، وهكذا المؤمنُ يموتُ ويُخلِّفُ ما يُنتفعُ بهِ من علمٍ نافعٍ أو صدقةٍ جاريةٍ أو ولدٍ صالحٍ يدعو له

ومن الفوائدِ أنَّ الحَبَّ الذي ينبتُ من الزرعِ هو مؤنةُ الآدميين، وغذاءُ أبدانهم، وسببُ حياةِ أجسادهم، فكذلكَ الإيمانُ هو قوتُ القلوب، وغذاءُ الأرواح، وسببُ حياتها، ومتى فقدتهُ القلوبُ ماتت، وموتُ القلوبِ لا يُرجى معهُ حياةٌ أبداً، بل هو هلاكُ الدنيا والآخرة.

- وأما الفاجرُ والمنافقُ فلا نفعَ له، كالأرزةِ لا تُثمر، وبعدَ موتها لا تصلحُ إلا حطبًا: عن عبدِ اللهِ بن مسعود قال: إنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ مُرَّ عليه بجِنَازَةٍ، فَقالَ: (مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه)، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما المُسْتَرِيحُ والمُسْتَرَاحُ منه؟ قالَ: (العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِن نَصَبِ الدُّنْيَا وأَذَاهَا إلى رَحْمَةِ اللَّهِ، والعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ منه العِبَادُ والبِلَادُ، والشَّجَرُ والدَّوَابُّ)[2] .

- وقال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3]، أما المنافقُ فإذا اقْتُلِعَ من الأرض لم يبقَ فيهِ نفع، بل ربما كانَ أكثَر ضرراً، فهو كالشجرةِ المُنجعفةِ لا تصلحُ إلا لوقيدِ النار

(١) الراوي: أبو هريرة | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم.الصفحة أو الرقم: ١٦٣١ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]. التخريج: من إفراد مسلم على البخاري

(٢) متفق عليه

(٣) هود ٦٠

- فلذلكَ شبَّهَ المؤمنَ بالزرعِ مُباركٌ في حملِه، كما ضربَ اللهُ مثلاً فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[1].

وأما ثمرُ بعضِ الأشجارِ العظامِ كالصنوبرِ ونحوهِ ليسَ فيهِ نفعٌ، وربما لا يتضررُ بفقدهِ لقلةِ نفعهِ ولقلةِ ثمره، وكُلُّ حبةٍ مما تغرسُ منهُ لا تزيدُ على نباتِ شجرةٍ واحدةٍ منها، فلذلك مُثِّلَ الكافرُ والمُنافق

٦. حالُ أهلِ الجنةِ حالُ خامةِ الزرع، وحالُ أهلِ النارِ حالُ الأرزة

عن حارثة بن وهب عن النبي ﷺ: (أَلا أُخْبِرُكُمْ بأَهْلِ الجَنَّةِ؟) قالوا: بَلَى، قالَ ﷺ: (كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لو أقْسَمَ علَى اللهِ لأَبَرَّهُ)، ثُمَّ قالَ: (ألا أُخْبِرُكُمْ بأَهْلِ النَّارِ؟)، قالوا: بَلَى، قالَ: (كُلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)[2]

التَّواضعُ مِن صِفاتِ أهلِ الجنَّةِ، والكِبْرُ مِن صِفاتِ أهْلِ النَّارِ؛ ولذلكَ كان أهلُ الجنَّةِ -كما يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هَذا الحديثِ- كُلَّ ضَعيفٍ مُتَضعَّفٍ، أي: مُتواضعٍ خاضعٍ للهِ تعالَى، مُذِلٍّ نفْسَه له، حتَّى إنَّ بعضَ النَّاسِ يَسْتضعِفونه ويَحتقِرونَه، وهذا المتذَلِّلُ للهِ تعالَى لو أقْسَمَ باللهِ يَمينًا طَمعًا في كرَمِ اللهِ تعالَى، لَأبرَّه اللهُ، وحقَّقَ لهُ ما أقسَمَ عليهِ وأجابَ طلَبَه ودُعاءَه.

وأمَّا أهلُ النَّارِ فهمْ كلُّ (عُتُلٍّ) وهو الفَظُّ الغليظُ شَديدُ الخُصومةِ، أو الفاحشُ الذي لا ينقادُ لخيرٍ، (جَوَّاظٍ) وهو المتكبِّرُ صاحبُ الجَسدِ الضَّخمِ، المختالُ في مِشْيتِه، وقيلَ: سَيِّئُ الخُلُقِ، (مُستَكبِر) على النَّاسِ بغيرِ حَقٍّ؛ فاستحَقَّ النَّارَ

---

(١) البقرة ٢٦١

(٢) مُتفقٌ عليه. الراوي: حارثة بن وهب الخزاعي | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: ٤٩١٨ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

قيلَ: إنَّ أغلَبَ أهلِ الجنَّةِ هؤلاء، كما أنَّ أغلَبَ أهلِ النَّارِ القِسمُ الآخَرُ.

وفي الحديثِ: الحثُّ على التواضُعِ للهِ عزَّ وجلَّ.

وفيهِ: أنَّ اللهَ سُبحانَهُ مع أوليائِهِ ينصُرُهم ويُعينُهم ويَبَرُّ قَسَمَهم.

وفيهِ: التحذيرُ من الصِّفاتِ السَّيِّئةِ التي تؤدِّي بصاحِبِها إلى النَّارِ، كالكِبْرِ ونَحْوِه

الدنيا دارُ ابتلاءٍ للمؤمنِ والكافرِ والمنافق:

خلقَ اللهُ تباركَ وتعالى هذهِ الحياة وجعلها دارَ امتحانٍ لبني آدم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[1]، وجعلَ لهذا الامتحانِ صوراً وأشكالاً متعددة، ما بينَ خيرٍ وشر، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾[2].

وشاءت حكمةُ اللهِ تعالى أن يجعلَ ابتلاءَ المؤمنِ وفتنتهُ في الانتقاصِ من نفسهِ أو أهلهِ أو مالهِ، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾[3]

فيبتليهِ بمرض، أو نقصٍ في جسده، أو بفقدِ ولدٍ أو حبيبٍ أو عزيز، ويبتليهِ بالفقرِ والحاجة، ويبتليهِ بتسليطِ الظلمةِ عليه، ولكنهُ في كلِّ ذلك مُتعلقٌ بالله، مشدودٌ إلى جنابهِ العظيم، لا تزيدهُ تلكَ المحنِ إلا صلابةً في دينهِ وقوةً في عقيدته، بخلافِ المنافقِ الذي يُمهلهُ اللهُ ويستدرجهُ ويمدُّ لهُ في أسبابِ الصحةِ والثروة، ثم إذا ابتلاهُ بشيءٍ من الشدةِ سقطَ في أولِ اختبار.

---

(١) الملك ٢

(٢) الأنبياء: ٣٥

(٣) البقرة: ١٥٥

من أهمِّ أسبابِ البلاءِ تكفيرُ سيئاتِ المؤمن:

«وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَخْلُو مِنْ عِلَّةٍ أَوْ قِلَّةٍ أَوْ ذِلَّةٍ أو تقصير، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَةِ السَّعَادَةِ بِشَرْطِ الصَّبْرِ وَالرِّضَا وَالشُّكْرِ»

ولقد قالَ الفضيل: إنما جُعلت العللُ ليؤدَّبَ بها العباد، ليسَ كُلُّ مَنْ مَرِضَ مات[1].

وقال النووي رحمه الله : «قال العلماءُ: معنى الحديث أنَّ المؤمنَ كثيرُ الآلامِ في بدنهِ أو أهلهِ أو مالهِ، وذلك مكفِّرٌ لسيئاته، ورافعٌ لدرجاته، وأما الكافرُ فقليلها، وإن وقعَ به شيءٌ لم يُكفِّر شيئًا من سيئاتهِ، بل يأتي بها يومَ القيامةِ كاملة»[2]

وقال ابن القيم: (هذا المثلُ ضُربَ للمؤمنِ وما يلقاهُ من عواصفِ البلاءِ والأوجاعِ والأوجالِ وغيرها فلا يزالُ بين عافيةٍ وبلاء، ومحنةٍ ومنحة، وصحةٍ وسقم، وأمنٍ وخوف، وغير ذلك، فيقعُ مرةً ويقومُ أخرى، ويميلُ تارةً ويعتدلُ أخرى، فيكفرُ عنهُ بالبلاءِ ويُمحصُ بهِ ويخلصُ من كدره، والكافرُ كلهُ خبثٌ ولا يصلحُ إلا للوقود، فليسَ في إصابتهِ في الدنيا بأنواعِ البلاءِ من الحكمةِ والرحمةِ ما في إصابةِ المؤمن، فهذهِ حالُ المؤمنِ في الابتلاء))[3].

قال الحافظُ ابنُ رجب رحمه الله: ففي هذا الحديثِ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ضربَ مثلَ المؤمنِ في إصابةِ البلاءِ بخامةِ الزرعِ التي تقلبها الريحُ يُمنةً ويُسرة، والخامةُ الرطبةُ من النبات

---

(١) حلية الأولياء [٨/١٠٩]

(٢) ينظر: شرح النووي المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج -ج ١- ص١٥٥.

(٣) مفتاح دار السعادة [١ / ١٢٧]

ومثّلُ المنافقِ والفاجرِ كالأرزة، وهي الشجرةُ العظيمةُ التي لا تُحركها ولا تُزعزعها حتى يُرسلَ اللّٰهُ عليها ريحاً عاصفاً فتقلعها من الأرضِ دفعةً واحدةً، وقد قيل: إنها شجرةُ الصنوبر، قاله أبو عبيد وغيره

ففي هذا فضيلةٌ عظيمةٌ للمؤمنِ بابتلائهِ في الدنيا في جسدهِ بأنواعِ البلاء، وتمييزٌ لهُ عن الكافرِ والمنافقِ بأنهُ لا يُصيبهُ البلاءُ حتى يموت، فيلقى اللّٰهَ بذنوبهِ كلها فيستحقُّ العقوبةَ عليها[1].

لقد تضافرت نصوصٌ كثيرةٌ في تكفيرِ ذنوبِ المؤمنِ بالبلاءِ والمصائب

ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِهِ وولدِهِ ومالِهِ حتَّى يَلقى اللّٰهَ وما عليْهِ خطيئةٌ[2].

جعَل اللّٰهُ ابتِلاءَ العبادِ بالمصائبِ والبَلايا كفَّاراتٍ للذُّنوبِ ومحوًا للسَّيِّئاتِ، وذلك أنَّ اللّٰهَ إذا أحَبَّ عبدًا ابتَلاه لِيَغفِرَ له ذنوبَه، حتَّى إذا لقِيَه لم يَكُنْ عليه خطيئةً

وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ ﷺ: «ما يَزالُ البلاءُ بالمؤمِنِ والمؤمنةِ»، أي: لا يَنفَكُّ العبدُ المؤمِنُ مِن البلاءِ فيظَلُّ مُبتَلًى، ويظَلُّ البلاءُ يتَنزَّلُ عليه، «في نَفسِه»، أي: في صِحَّتِه وجسَدِه، «وولَدِه»، أي: في أولادِه مِن مرَضٍ أو وفاةٍ أو عقوقٍ أو غيرِ ذلك، «ومالِه»، أي: مِن افتِقارٍ وذَهابِ تِجارةٍ وكَسادِ عيشٍ وضيقٍ في الرِّزقِ، «حتَّى يَلْقى اللّٰهَ وما عليهِ خَطيئةٌ»؛ أي: حتَّى يُكفِّرَ اللّٰهُ عنهُ بذلكَ البلاءِ كلَّ ذُنوبِه وخَطاياه حتَّى إذا لَقِيَ اللّٰهَ يكونُ قد طَهُرَ مِن كلِّ الذُّنوبِ والآثامِ الَّتي ارتكَبها، ويكونُ لهم على ذلكَ الجزاءُ الحسَنُ يومَ القيامةِ

(١) ص١٥٢ -أرشيف ملتقى أهل الحديث- هل من تسليةٍ لأهلِ البلاء.

(٢) الراوي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترمذي. الصفحة أو الرقم: ٢٣٩٩ | خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح. التخريج: أخرجه الترمذي (٢٣٩٩) واللفظ له، وأحمد (٧٨٥٩).

وقد ورَد عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «يوَدُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حينَ يُعطَى أهلُ البلاءِ الثَّوابَ لو أنَّ جُلودَهم كانت قُرِضَت في الدُّنيا بمقاريضَ»

وفي الحديثِ: فضلُ البلاءِ وأثَرُه في تكفيرِ الذُّنوبِ، وبيانُ أنَّه مِن شأنِ الصَّالحين

الحديثُ الشريفُ يُعدُّ من أبلغِ التشبيهاتِ النبوية

التي صوَّرَ فيها حالَ المؤمنِ حالَ تلقيهِ المصائب، ومعاناتهُ في البلاء، حيثُ شبهَهُ بالنبتةِ اللينةِ التي تتلقاها الريح، فالنبتةُ اللينةُ تميلُ مع الريحِ مطاوِعةً غيرِ معانِدة، فلا تنكسرُ ولا تتفتت، ثم تُعاودها الريحُ مرةً أخرى فتميلُ معها، حتى إذا انتهت عاصفةُ الريحِ عادت إلى اعتدالها

وهكذا يكونُ حالُ المؤمنِ مُستسلماً لقضاءِ اللهِ، مُتوافقاً معَ مُرادِ اللهِ، غيرِ معانِدٍ ولا مُتسخِّط، بل يصبرُ ويحتسب، وهذا مقتضى الإيمانِ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّه، وهو يعلمُ أنَّ اللهَ إنما يبتليهِ ليُعليَ في الآخرةِ مقامهُ، فيهونُ عليهِ كلُّ بلاء، ويكونُ المؤمنُ بإيمانهِ راضٍ عن أقدارِ ربه، لا يُهلكهُ الابتلاءُ، بل يزيدهُ قرباً من الله

فالإيمانُ في قلبِ المؤمنِ كالنبتةِ الغضةِ الطريةِ لا تقتلعها الرياحُ لرطوبتها ولينها، بل تتمايلُ معَ الريح، مُتعايشةً مع ظروفِ الحياةِ من حولها، تميلُ لكنها لا تسقط، وكذلكَ المؤمنُ يُبتلى ويُمتحنُ لكنهُ لا يسقط.

يمشى مع البلاءِ كيفما مشى به، فيلينُ لهُ فيقلبهُ البلاءُ يُمنةً ويُسرةً، فكلما أدارهُ استدارَ معهُ فيكونُ عاقبتُهُ العافيةَ من البلاءِ وحسن المآلِ في الدنيا والآخرة.

بخلافِ الأشجارِ القاسيةِ التي تُعاندُ الريحَ فتنكسرُ وتتساقطُ أغصانها، وتتناثرُ أوراقها؛ وهذا مثلُ الكافرِ والمنافقِ الذي لا يخضعُ ولا ينكسرُ لربهِ وقتَ البلاء، وتجمعُ لهُ المتعةُ والعافيةُ في الدنيا، فإذا أخذهُ اللهُ كانت أخذةَ غضبٍ، فيُهلكهُ اللهُ مرةً واحدة

فاللهمَّ يا مُثبِّتَ القلوبِ، ثبِّت قلوبنا على طاعتك.

م	المراجع
١	مَثَلُ الْمُؤْمِنِ؛ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِن الزَّرْعِ، تُفِيئُهَا الكلم الطيب.
٢	مَثَلُ الْمُؤْمِنِ؛ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِن الزَّرْعِ، تُفِيئُهَا الدكتور عبد الرحمن إبراهيم فودة.
٣	المنبر- أحمد فريد.
٤	مثل المؤمن كخامة الزرع - موسوعة الدرر السنية.
٥	علوم النبات-الدكتور نظمي أبو العطا موسى.
٦	أمور تعين على الصبر- أحمد شريف النعسان.
٧	مثلُ المؤمنِ كالخامةِ من الزرعِ / سعيد محمود.
٨	مجموع رسائل الحافظ ابن حجر الحنبلي تحقيق/ أبي مصعب الحلواني باختصار (١/٢١١-٢٢٤): منقول من أحد المنتديات بتصرف
٩	مثلُ المؤمنِ كالخامةِ من الزرعِ / سعيد محمود.